النواحي الجمالية والفنية في القصة القرآنية مستويات قصة سيدنا يوسف – عليه السلام – من حيث الرؤيا والحيلة

أ. حمزة شعبان علـيّ الأحول ـ كلية الآداب العجيلات ـ جامعة الزاوية

الملخّـــص:

أفضـــل الدراسات والبحوث ما كان مجالها كتاب الله - تعالى- (القرآن الكريم) بتفسير آياته وتذوق بديع نظمه وبلاغته. لذا جاءت النظرة إلى هــذا المعطى الجمالي والأثر السردي من وجهة النظر فيها ، ما جعل الدراسة تسعى إلى إظهار جانب جمالي فني لهذا المكون الســـردي ؛ لأن كل قصة لا تخلو من الأحداث المتنوعة تتعدد أحداثها التي تكشف على عدة دلالات سردية تنتقل من مستوى إلى آخر، وقد جاء الاختيار لسورة سيدنا يوسف – عليه السلام – تعبيراً عما وجدناه في هذه الرؤية وليس من أجل الإثارة أو التكرار أو الاجترار، والهدف الرئيس من اختيار هذه الدراسة هو إظهار ما امتازت به هــذه القصة من رقي فني من خلال خطاباتها الموجهة للمتحدث أو الحدث ، وإبراز ما تحتويه القصة القرآنيـــة من قيم أدبية رفيعة من خلال الأسلوب القصصي القرآني. ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ، إن القصة كبناء هندسي ضربت النموذج الفني الكامل في البناء القصصي الفني ، وامتازت بسمو الغاية وشرف المقصد ، وصدق الموضوع ، وظهور خطاب امرأة العزيز أكثر من غيرها في القصة، وتنوعه على مستويات ثلاث : خطاب الرغبة، وخطاب التهديد ، وخطاب الاعتراف والتوبة.

المقدمـــــــــة:

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على من بعثه الله للمسلمين، وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

عنوان هذه الدراسة (النواحي الجمالية والفنية في القصة مستويات قصة سيدنا يوسف – عليه السلام – من حيث الرؤيا ومن حيث الحيلة).

مشـــكلة الدراســـة :

تحاول أن تجيب على التساؤلات الآتية:

ـ ما المستويات والحيل والرؤيا التي مرة بها قصة سيدنا يوسف – عليه السلام – كيف عالج هذه الأمور؟ والأساليب التي اتبعها لإظهار الحقيقة؟

هدف الدراســــــــة :

الهدف الرئيس لهذه البحث المساهمة في تغطية فترة زمنية من حياة من كانت له بصمة فنية رائعة احتواها (القرآن الكريم) من خلال صورة بيانية رائعة.

أهمية الدراســــــــة :

الكشف عن المعطي الجمالي والأثر الفني لفي قصة سيدنا يوسف – عليه السلام – حيث شغل القصص القرآني مساحة من كتاب الله كان الغرض منه تقرير أهداف وغايات عديدة.

منهج الدراســــــــة :

اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي يناسب جميع الأبعاد.

خِطــــــــة الدراســــــــة :

قسمت الدراسة إلى مدخل يهيئ أرضية الدراسة ، وثلاثة مستويات ، وثلاث حيل.

أولاً ـ المستوى من حيث الرؤيا: رؤيا سيدنا يوسف – عليه السلام ، ورؤيا الفتيين اللذين صاحبا يوسف في السجن ، ورؤيا الملك.

ثانياً : مستوى الحيلة : حيلة إخوة يوسف ، وحيلة امرأة العزيز ، وحيلة يوسف – عليه السلام. وذُيِّلت الدِّراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج.

مُدخـــــــل

تعد الــــرؤى والحيل في هذه القصة من أهم ما ورد في القــرآن في هذا النوع بسبب الســـرد المتناسق والمتناغم فيها بحيث إنّ الرؤى والحيل لازمت القصة في بنائها الزماني والمكاني من بداية القصة إلى نهايتها ومن جانب آخـــــر الكشف عن بعض جوانب الإعجاز في القصة القرآنية من خلال دراسة الرؤى والحيل التي وجدت في قصة سيدنا يوسف – عليه السلام – فقد وردت في سورة يوسف – عليه السلام – أربع رؤى حيث بدأت القصة برؤية وانتهت بتحقيقها.

أولاً ـ المســـــتوى من حيث الرؤيا:

وهو المســـــتوى الأول الذي بدأت به القصة ، قال – تعالى - : **(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِـــي سَاجِـــدِينَ)** [سورة يوسف: الآية: 4].

وينقسم هذا المستوى إلى أربـــع مراحل:

1- رؤيا يوسف – عليه السلام - : هي تلك الرؤيا التي قصَّها يوسف على أبيه ، حيث قال : **(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)** [سورة يوسف: الآية: 4] ، نلحظ في هذه الرؤيا التي تعتبر فاتحة للـــرؤى التي تتابعت في هذه القصة الرائعة ، إنما احتوت على رمزيات جليلة وعظيمة ، تكشف من ورائهما مستقبل يوسف الذي ينتظره ، ولهذا نجد أن أباه يعقوب – عليه السلام – لما سمع منه الرؤيا نصحه بأن لا يخاطب بها أحداً من إخوته ، فقال: **(قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)** [سورة يوسف: الآية 5] ، كما نلحظ – أيضاً- أن الأسلوب الذي خاطب به يوسف أباه عندما أراد أن يُعلمه بهذه الرؤيا قد اعتمد فيه على أسلوب الاستعطاف والتلطف ، مما يدل على أن يوسف كانت له مكانة وجدانيـــة تميزه عن بقية إخوته عند أبيه " ولما خاطب يوسف أباه بقوله : يا أبت، فيه إظهار الطواعية والبر والتنبيه على محل الشفقة بطبع الأبوة خاطبة أبوه بقوله : يا بني، تصغير التجيب والتقريب والشفقة"[1].

مما سبق نلاحظ أن الطريقة والأسلوب الذي خاطب به يوسف أباه هو الأسلوب نفسه الذي استخدمه الأب؛ لأن كليهما يحمل نفس الود والمحبة والإخلاص للآخر.

2- رؤيا الفتيين اللذين صاحبا يوســـف في الســـجن : حين دخل يوسف – عليه السلام – السجن صادف ذلك دخول فتيين، ورأى كل منهما رؤيا ، قال – تعالى- : **(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِـــنَ المُحْسِـــنِينَ)** [سورة يوسف: الآية 36]، فسر - عليه السلام - رؤيا الفتى بأنه سيسقي ربه خمراً ، وهذا المستوى من الرؤيا أتى بعد المحنة الثالثة والأخـــيرة من المحن الشديدة في حياة يوسف ، فكل ما بعدها كان رخاءً ، وبذلك ترتبط هذه الرؤيا مع فارق الآيات التي تحمل دلالات أحداث القصة وطول زمانها بينها وبين سابقتها من الرؤيا ، إلا أن هذا الطول والامتداد الزمني لا يمنع أن يكون الأول، فالرؤيا والمستوى الثاني يعد مرتبطان ببعضهما ارتباطاً قوياً.

فنلحظ أن الرؤيا الأولى في مستواها فائقة لمراحل الشدة والابتلاء اللتين تتابعتا على سيدنا يوسف ، وأما هذا المستوى من الرؤيا نجده قد حمل دلالات اختتام لهذه المحن وشدتها وفتح باب الرخاء بعد طول مدة من الزمن ، وهذا يتبين تفصيله وإدراكه من خلال ما نلحظه من سياق هذه الآية التي أخبرت بما دار بين يوسف والفتيين[2].

فقد كانت هذه "منحة إلهية ليوسف في السجن على يدي هذين الفتيين تتجلى فيها نعمة الله لما وهبه من علم بتعبير الرؤيا وبعض الغيب القريب التي تبدو أوائله فيصرف تأويله ، ثم تتجلى نعمة الله عليه أخيراً بإعلان براءته الكاملة إعلاناً رسميا بحضرة الملك وظهور مواهبة التي تؤهله لما هو مكون له في علم الغيب من مكانة مرموقة وثقة مطلقة وسلطان عظيم"[3].

ونجد أن يوسف توّج بختام تأويله لرؤية الفتيين بقوله: **(ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي)** **[سورة يوسف، الآية: 37]**، وذلك لفطنة يوسف ودورة في نشر العقيدة الصحيحة فكانت الفائدة في قوله ، وهذا نفي لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ عن الكهانة أو التنجيم أو غير ذلك مما يُقرُه الدين ، وكذلك يستفاد من هذه الآية فيها أشعار بأن ما أخبرهما به من الغيبيات هو جزء من علوم كثيرة علمها إياه ربه عز وجل فضلاً وكرمًا من الله، ولهذا نجده اتماماً للفائدة منه أضاف إلى ذلك قوله: (**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)** **[سورة يوسف، الآية: 37-38]**، ليكون تعبيره متمم لفائدة الدعوى التي بها وظيفته الأصلية التي بعثه الله لها، فهذا غاية الاتقان من يوسف في أسلوبه من مستوى هذه الرؤيا التي هي خاتمة للمحن وفاتحة للمنح[4].

3- رؤيا الملك : رأى الملك رؤيا فبادر وسعى لتعبيرها قال – تعالى- : **(وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)** **[سورة يوسف: الآية 43]**. "هذا عطف جزء من قصة على جزء منها تكملة لوصف خلاص يوسف – عليه السلام – من السجن"[5]، فهذه الرؤيا كانت بمثابة الخاتمة لحياة يوسف بالسجن وبتفسيره إياه سبب في خروجه من السجن وإنقاذ مصر والأرض من الفقر، يقول صاحب كتاب [الجامع لأحكام القرآن] القرطبي – رحمه الله - : "ولما دنا فرج يوسف – عليه السلام – رأى الملك رؤياه ، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشره بالفرج ، وقال: إن الله مخرجك من سجنك ، وممكن لك في الأرض ، يذل لك ملوكها، ويعطيك جبابرتها ، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك ، وذلك بسبب رؤيا رأها الملك، وهي كيت وليت ، وتأويلها كذا وكذا"[6].

ثانياً ــ مســـــــــتوى الحيلة:

في قصة سيدنا يوسف – عليه السلام – توحيد ثلاث حيل، ولكل حيلة دوافع

وأسباب خاصة بها ، فمنها ما كان سببه الغربة، ومنها ما كان سببه الحب والعشق والرغبة، وأخرها ما كان سببه رد الحق نصابه.

حيلة إخـــــــوة يوسف : وكان الدافع لهذه الحيلة هو حب يعقوب الأب لابنه الأقرب إلى قلبه يوسف – عليه السلام -، فما كان لإخوته إلا الغيرة ، ودفعتهم هذه الغيرة العمياء إلى تغييب كامل ليوسف – عليه السلام -، قال- تعالى - : **(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)** [سورة يوسف، الآية: 8]. هنا افتتحوا القول: "بلام الابتداء المفيدة للتوكيد لقصد تحقيق الخبر، والمراد توكيد لازم الخبر ؛ إذ لم يكن فيهم من يشك في أن يوسف – عليه السلام – وأخاه أحب إلى أبيهم من بقيتهم"[7]، فإخوة يوسف لم يكونوا سواء في الحسد والغيرة ، من حيث تفضيل أبيهم إياهما على بقيتهم ، فأراد بعضهم إقناع بعض، فهذه الحيلة هي الفاتحة لحياة يوسف ومحنته التي كانت منذ هذه المؤامرة التي تأمر عليه إخوته بما حيث اتفقوا جميعاً على رميه في الجب دون قتله، فيوسف رُمي في الجب والأخوة تخلصوا من الغيرة ويعقوب صار أسيراً للحزن والشوق الدائم لابنه المحبوب لديه.

2- حيلة امـــــــــــرأة العزيـــــــز: وكان دافع هذه الحيلة وأهـــدافها والمبرر لها هو حب السيدة لخادمها ورغبتها فيه ، وسماعها بمكر سيدات مصر، ويتجلّى هذا في قوله – تعالى- : **(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ)** [سورة يوسف، الآية: 31-32]. فالدافع كان يتمثل في قوله: **(فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ)** [سورة يوسف، الآية: 31] ، فهنا تريد أن يدقن ما ذاقت هي ، أو تريهن أن يقعن فيما وقعت هي فيه ، يقول صاحب تفسير الوسيط: "وهي ترمي من وراء خروجه عليهن إلى اطلاعهن عليه حتى يعذرنها في حبها له"[8]، وبعد ذلك تُبرر امرأة العزيز لنفسها قال – تعالى - : **(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ)** [سورة يوسف، الآية: 32]. "وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها اللائي عدلنها في حبها ليوسف ، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفي، وبدون استحياء أو تلميح: **(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ)** [سورة يوسف، الآية: 32]"[9]، ولا ننسى أنها وراء كل ذلك أهداف تريد أن تصل إليها امرأة العزيز، وهذه الأهداف تتمثل في قوله – تعالى- : **(وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ)** [سورة يوسف، الآية: 32].

هنا اعتراف صريح لامرأة العزيز بأنها هي من وراء مراودته عن نفسه وجاء هذا الاعتراف بعدما قدمت حيلتها المتمثلة في إرسالها للنســـوة وإعدادها للمتكأ وإحضار السكاكين وأمرها ليوسف بالخروج عليهن وضمنت ما خططت له ، ومع هذا استعصم وأبى أن لا يفعل ، ولئن لم يفعل ليسجن أو يكون من الصاغرين و"أكدت السجن بالنون الثقيلة وبالقسم لتحققه في نظرها ، وأكدت الصغار بالنون الخفيفة ؛ لأنه غير متحقق فيه، ولأنه من توابع السجن ولوازمه"[10]، وما كان ليوسف إلا أن يلجأ لربه مستجيراً به ومحتمياً بحماه ويقول: **(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)** [سورة يوسف، الآية: 33]، هكذا هي امرأة العزيز بحيلتها أودعت يوسف – عليه السلام – السجن.

حيلة يوسف – عليه السلام -:

تختلف هذه الحيلة عن الحيل السابقة، وأن مفادها وموضوعها إعادة الحـــق إلى نصابه ، بحيث استدرج يوسف إخوته وطلب منهم أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم ، ولما أتوا به جعل برحله صواع الملك، "وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة"[11]، وفي هذه الحيلة نقف على جانب مهم وهو سؤال يطرح نفسه – لماذا بـــدأ سيدنا يوسف – عليه السلام – بتفتيش أوعية إخوته قبل وعاء أخيه: قال تعالى: **(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ)** [سورة يوسف، الآية: 76].

قال المفســـرون: "هذا من تمام الحيلة ودفع التهمة فإنهم لما ادعـــوْا البراءة قالوا لهم : لا بد من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء "بنامين " وذكر أنه لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاءً إلا استغفر الله مما قذفهم ، حتى بقى أخوه – وكأن أصغر – القوم فقال : ما أظن هذا أخذ شيئاً فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصـــــواع فيه ، فذلك قوله - تعالى - : **(ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ)** [سورة يوسف، الآية: 76]، فلما أخرجها منه نكس الإخـــــوة رؤوسهم من الحياء وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ، كذلك كدنا ليوسف، أي : كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمنا الحيلة ليستبق أخاه عنده **(مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ)** [سورة يوسف، الآية: 76] ، أي : ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر، لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويُغرم ضعف ما ســـرق قال – تعالى - : **(إِلاَّ أَن يَشَـــاءَ اللَّهُ)** [ســـورة يوسف، الآية: 76]، أي: إلا بمشيئته- تعالى- وإذنه ، وقد دلت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له "[12]، قال – تعالى- : **(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ)** [سورة يوسف، الآية: 76] ، ما يُمـــيزه هـــذه الحيلة عن سابقاتها ، ولكل حيلة طابع خاص هي مرأة

لصاحب الحيلة ، فحيلة امـــرأة العزيز دافعها الاقتصاص والانتقام من النســـوة ، وحيلة إخوة يوسف دافعها الحسد والغيرة، وأما حيلة يوسف – عليه السلام – دافعها رجـــوع الحق وتحقيق العدالة ، وصدرت من نفس طيبة وشخصية حكيمة.

الخاتمـــــــــة:

توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج من أهمها:

1- إن القصة كبناء هندسي ضربت النموذج الفني الكامل في البناء القصصي الفني، وأنه مهما بلغت درجة ملامح الجدة في القصص البشري الوصفي من تطور إلا ونجدها متجذرة في عمارة القصة القرآنية.

2- امتازت القصة بسمو الغابة وشرف المقصد، وصدق الكلمة والموضوع، وتحري الحقيقة، بحيث لا يشوبها شائبة من الوهم أو الخيال ، أو مخالفة الواقع.

3- ظهور خطاب امرأة العزيز أكثر من غيرها في القصة وتنوعه على مستويات ثلاثة: خطاب الرغبة، وخطاب التهديد، وخطاب الاعتراف والتوبة.

4- تنوع الدلالات البلاغية في القصة أو تآزرها في إبراز المعاني وخدمتها.

الهوامـــــــــــش:

(1) تفسير البحر المحيط، أبو حيان التوحيدي، ت: صدقي محمد، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
(2) انظر تفسير اللبان لابن عادل الدمشقي الحنبلي (بشيء من التصرف)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ج100/1.
(3) في ظلال القرآن، السيد قطب، دار الشرق، بيروت، القاهرة، ط2، 1993م.
(4) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (بشيء من التصرف)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ج457/18.
(5) التحرير والتنوير، محمد بن عاشور، دار سحنون، تونس، 1984م.
(6) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تح: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004م، ج162/9.
(7) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج220/6.
(8) تفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد طنطاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1997م.
(9) تفسير الوسيط، ط204/1.
(10) معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، تح: محمد عبدالله التمر، دار طيبة للنشر، ط4، ج238/4، 1997م.
(11) تفسير ابن كثير، لابن كثير الدمشقي، ت/ سامي السلامة، دار طيبة، ط1، 638، 2005م.
(12) صفوة التفاسير، محمد الصابوني، دار القرآن، بيروت، ط2، ج57/2، 1981م.